

## شخصية سعيد

المغرب - عدد خاص بالذكرى الأولى للمرحوم سعيد محي

السنة السادسة - العدد 1189 الخميس 4 ربيع الأول عام 1362 - 11 مارس سنة 1943

قاسم الزهيري

في المرأة

التربية أبرز ميزة اختص بها سعيد؛ فقد ارتكز عليها كل عمله وكل خطوة خطاها قيد حياته، فتربيته هي التي أتاحت له أن يتبوأ المركز الذي تركه شاغرا بعد وفاته، فعمل الناس جميعا السنة ثناء عليه.

\*\*\*

عشنا يحاول المرء أن يجلو مواطن القوة في شخصية عصامية فذة فيسبر غورها، ويوضح معالمها إذا لم يتخذ صورة واضحة أتم الوضوح عن مظاهر هذه الشخصية فيوحد أجزاءها، ويصل أطرافها بعضا ببعض، ثم يجهد نفسه في البحث عن التأثيرات الخارجية التي كان لها أوفر نصيب في تكوين هذه الشخصية وطبعها بطابع الاستقلال والانفراد. فليست البشرية إلا مرآة تنعكس فيها تلك المؤثرات انعكاسا تاما. فإذا كانت النفسية قوية بفطرتها استطاعت أن تستفيد منها إلى أبعد حد فيخرج صاحبها عن المعتاد من البشر؛ وإذا كانت ضعيفة بجيلتها مرت بها تلك المؤثرات كما يمر النسيم على صفحة ماء راكد فلا يترك فيه أثرا بينا. ومن المؤثرات ما هو اجتماعي محض وما هو فكري محض ومنها ما هو مزيج من هذا وذاك. وهي تتجسم في المحيط العائلي الضيق ثم في البيئة الاجتماعية الواسعة وفي الجو الثقافي والفكري الذي قد يختلف إليه بعضنا فيجد فيه مآربه، وأخيرا في الرحلات

والمغامرات وغير ذلك.

والمرحوم سعيد الذي تتبارى الأقلام اليوم في ذكر مناقبه وتعداد مزاياه والإشادة بحزمه وتدييره ونشاطه قد نحصفه حقه إذا لم نحاول أن نبحث عن المنبع الوحيد الذي تفرقت منه كل هذه المزايا، ولا يتيسر لمس حقيقة الواقع والوصول إلى سر هذه المميزات الخاصة إلا لمن لابس سنوات مديدة فكانت تجمعها وإياه روابط صداقة أو عمل أو هما معا.

والغالب أن رابطة الصداقة كثيرا ما ينتج عنها العمل المثمر في بلادنا، إذ لم نبلغ بعد درجة النضج الفكري بحيث نتجرد عن كل العواطف ونتسامى عن كل الاندفاعات، فلا نرى الرجل إلا من حيث كونه رجلا مجردا والعمل إلا من حيث كونه عملا مجردا.

لقد كان سعيد عاملا حقا ونشيطا صدقا، فكان عنوان العمل والنشاط، وكان مفكرا متمقا وصحفيًا ممتازا. وكان ذا اطلاع كثير وثقافة جمة؛ وكان إلى هذا وذاك من شبابنا المعول عليهم في النهوض بالبلاد، ولكن ذلك كله قد لا يساوي عشر معشار ما كان عليه من التربية التي كانت كل شيء في نظره والتي بنى عليها كل عمله وكل خطوة خطاها قيد حياته، فتريبته هي التي أتاحت له أن يتبوأ المركز الذي تركه شاغرا بعد وفاته، فجعل الناس جميعا ألسنة ثناء عليه.

وأهم ما يمتاز به أن هذه التربية التي تحلى بها فهمدت له سبلا وعرة وعقبات كأداء لا يدين بها لغيره، فلا الوسط هذبه، ولا أخصاؤه كان لهم التأثير الفعال في تكوينه، ولا سفره في طلب المعرفة هذب من طبعه، وإنما ذلك مجهود فردي بذله ومرن نفسه عليه حتى تزود بخير ما يتزود به شاب في مثل سنه. ولا ننكر أن ارتحاله للخارج لم يكن له أدنى تأثير عليه، فقد أكسبه من دون شك سعة في المعرفة، وبعدا في النظر، ولكنه لم يكسبه ذلك الشيء الثمين الذي بدونه لا نستقيم لحياة ولا نهذب بالتربية.

والتربية - أو جهاد النفس - مطلب عسير، فإن النفس ذات سلطان قوي. فإذا قاومت ذلك السلطان طال بك الجهاد؛ جهاد لا يتتهي، يستمر إلى آخر حياتك الدنيوية، ولكنك

كل يوم تستيقظ مزودا بقوة جديدة، وتوقن أن النصر الأخير لك؛ وذلك ما يذلل أمامك صعوبة الجهاد، كما يقول غاندي.

وفعلا، فقد استطاع سعيد أن يجاهد نفسه، فكبت عواطفه الجاححة، وسيطر على غرائزه وأخضعها إلى سلطان العقل، ثم فكر طويلا في نفسه فاستجلى غوامضها وعرف ما منحه الله إياه من مواهب، وتقدم في آخر الأمر إلى ميدان الحياة واتقا من نفسه، معتمدا عليها، مؤمنا بالظفر؛ فانفسحت أمامه السبل، واتسعت أرجاؤها، وحطم بعزمه كل عرقلة قامت في طريقه. ولا أدري كم كلفه ذلك الجهاد من وقت؛ فكل ما في الأمر أنه بدأه وهو ما يزال حدثا، فكانت سمات الرجولة تظهر عليه وهو في سن الطفولة، وكان يفكر في المشاريع الجديدة فيضع أسسها، وهو على هاته الحال وهكذا تم نضجه مبكرا، قبل أن یرتحل إلى الشرق والغرب بسنوات.

ولقد قص على رحمه الله نادرة في هذا الصدد أحب أن أنقلها إلى القراء، قال: « كنت على أهبة السفر إلى مصر، فضاع مني شيء ( ولا أذكره بالضبط ) فالتفت والدي إلى ذلك وخاطبني معاتبا: إذا كنت قد أضعت ذلك وأنت هنا، فما بالك إذا تغربت في قطر بعيد؟ فكان لهذا التأييب وقع عنيف في نفسي، وما زلت بها حتى ضبطت أموري، فلم أعد أتلف شيئا بالمرّة » .

وكان يسيئه في بعض معارفه قلة نظامهم واستهتارهم بأمورهم، فكان يخاطبهم جادا مؤنبا: « اختاروا لأنفسكم أحد الطريقتين، فإما أن تكونوا بهيمين، وحينئذ لا تتطلب منكم نظاما ولا ضبطا، وإما أن تكونوا رجالا كمطلق الناس، وحينئذ يجب أن تضبطوا أموركم وتنظموا حياتكم » . ولقد طالما حث أصدقاءه وأخصاءه على المباحثة في نقائصهم وعيوبهم والمبادرة في علاجها. ولا يخامرنا أدنى شك في الأثر البعيد الذي كان للتربية في اتجاه سعيد رحمه الله؛ فلقد تفرع عنها كل من إرادته الصلبة ونشاطه المستمر وفكره الوقاد وحسن معاملته لجميع الناس على اختلاف طبائعهم.